الأسباب العشر

في

موانع التوفيق

وأسباب الخذلان

لابن القيم رحمه الله

تهذيب وترتيب وشرح

أبي يحيي

سامح ابن محمد ابن أحمد

قال رحمه الله

في مفتاح دار السعادة (١/ ٩٦)

لَا يلْزم من الْعلم حُصُول الاهتداء الْمَطْلُوب وَإِن اريد بِكَوْنِهِ مُوجبا انه صَالح للاهتداء مُقْتَض لَهُ وَقد يتَخَلَّف عَنهُ مُقْتَضَاهُ **لقصوره اَوْ فَوَات شَرط اَوْ قيام مَانع** ..وتفصيل هَذِه الْجُمْلَة أن الْعلم بِكَوْن الشَّيْء سَببا لمصْلحَة العَبْد وسروره قد يتَخَلَّف عَنهُ عمله بِمُقْتَضَاهُ لأسباب عديدة:

السَّبَب الأول: ضعف مَعْرفَته بذلك.

السَّبَب الثَّانِي: عدم الأهلية وَقد تكون مَعْرفَته بِهِ تَامَّة لَكِن يكون مَشْرُوطًا **بزَكَاة الْمحل وقبوله للتزكية** فَإِذا كَانَ الْمحل غير زكي وَلَا قَابل للتزكية كَانَ كالأرض الصلدة الَّتِي لَا تخالطها المَاء فَإِنَّهُ يمْتَنع النَّبَات مِنْهَا لعدم أهليتها وقبولها فَإِذا كَانَ الْقلب قاسيا حجريا لَا يقبل تَزْكِيَة وَلَا تُؤثر فِيهِ النصائح لم ينْتَفع بِكُل علم يُعلمهُ كَمَا لَا تنْبت الارض الصلبة وَلَو أصابها كل مطر وبذر فِيهَا كل بذر كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذَا الصِّنْف من النَّاس {إِن الَّذين حقت عَلَيْهِم كلمة رَبك لَا يُؤمنُونَ وَلَو جَاءَتْهُم كل آيَة حَتَّى يرَوا الْعَذَاب الأَلِيم} وَقَالَ تَعَالَى وَلَو اننا نزلنَا اليهم الْمَلَائِكَة وكلمهم الْمَوْتَى وحشرنا عَلَيْهِم كل شَيْء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إِلَّا ان يَشَاء الله وَقَالَ تَعَالَى قل انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَات والارض وَمَا تغنى الآيات وَالنّذر عَن قوم لَا يُؤمنُونَ وَهَذَا فِي الْقُرْآن كثير فَإِذا كَانَ الْقلب قاسيا غليظا جَافيا لَا يعْمل فِيهِ الْعلم شيئا وكذلك إِذا كَانَ مَرِيضا مهينا مائيا لَا صلابة فِيهِ وَلَا قُوَّة وَلَا عَزِيمَة لم يُؤثر فِيهِ الْعلم.

السَّبَب الثَّالِث: قيام مَانع وَهُوَ إِمَّا حسد أَو كبر وَذَلِكَ مَانع إِبْلِيس من الانقياد لِلْأَمْرِ وَهُوَ دَاء الأولين والأخرين إلا من عصم الله وَبِه تخلف الإيمان عَن الْيَهُود الَّذين شاهدوا رَسُول الله وَعرفُوا صِحَة نبوته وَمن جرى مجراهم وَهُوَ الذي منع عبد الله بن أبي من الإيمان وَبِه تخلف الإيمان عَن أبي جهل وَسَائِر الْمُشْركين فإنهم لم يَكُونُوا يرتابون فِي صدقه وأن الْحق مَعَه لَكِن حملهمْ الْكبر والحسد على الْكفْر.

السَّبَب الرَّابِع: مَانع الرياسة وَالْملك وإن لم يقم بِصَاحِبِهِ حسد وَلَا تكبر عَن الانقياد للحق لَكِن لَا يُمكنهُ أن يجْتَمع لَهُ الانقياد وَملكه ورياسته فيضن بِملكه ورياسته كَحال هِرقل واضرابه من مُلُوك الْكفَّار الَّذين علمُوا نبوته وَصدقه واقروا بهَا بَاطِنا واحبوا الدُّخُول فِي دينه لَكِن خَافُوا على ملكهم وَهَذَا دَاء ارباب الْملك وَالْولَايَة والرياسة وَقل من نجا مِنْهُ الا من عصم الله وَهُوَ دَاء فِرْعَوْن وَقَومه وَلِهَذَا قَالُوا {أنؤمن لبشرين مثلنَا وقومهما لنا عَابِدُونَ} أنفوا أن يُؤمنُوا ويتبعوا مُوسَى وهرون وينقادوا لَهما وَبَنُو إِسْرَائِيل عبيد لَهُم.

السَّبَب الْخَامِس: مَانع الشَّهْوَة وَالْمَال وَهُوَ الَّذِي منع كثيرا من أهل الْكتاب من الايمان خوفًا من بطلَان مَأْكَلهمْ وَأَمْوَالهمْ الَّتِي تصير اليهم من قَومهمْ وَقد كَانَت كفار قُرَيْش يصدون الرجل عَن الايمان بِحَسب شَهْوَته فَيدْخلُونَ عَلَيْهِ مِنْهَا فَكَانُوا يَقُولُونَ لمن يحب الزِّنَا ان مُحَمَّدًا يحرم الزِّنَا وَيحرم الْخمر وَبِه صدوا الاعشى الشَّاعِر عَن الاسلام وَقد فاوضت غير وَاحِد من اهل الْكتاب فِي الاسلام وَصِحَّته فَكَانَ آخر مَا كلمني بِهِ احدهم انا لَا أترك الْخمر واشربها امنا فَإِذا اسلمت حلتم بيني وَبَينهَا وجلدتموني على شربهَا وَقَالَ آخر مِنْهُم بعد ان عرف مَا قلت لَهُ لي اقارب ارباب اموال وَإِنِّي ان اسلمت لم يصل الي مِنْهَا شَيْء وانا اؤمل ان ارثهم اَوْ كَمَا قَالَ وَلَا ريب ان هَذَا الْقدر فِي نفوس خلق كثير من الْكفَّار فتتفق قُوَّة دَاعِي الشَّهْوَة وَالْمَال وَضعف دَاعِي الايمان فيجيب دَاعِي الشَّهْوَة وَالْمَال وَيَقُول لَا أَرغب بنفسي عَن آبَائِي وسلفي.

السَّبَب السَّادِس: محبَّة الاهل والاقارب وَالْعشيرَة يرى أنه اذا اتبع الْحق وَخَالفهُم ابعدوه وطردوه عَنْهُم واخرجوه من بَين اظهرهم وَهَذَا سَبَب بَقَاء خلف كثير على الْكفْر بَين قَومهمْ وأهاليهم وعشائرهم.

السَّبَب السَّابِع: محبَّة الدَّار والوطن وإن لم يكن لَهُ بهَا عشيرة وَلَا أقارب لَكِن يرى ان فِي مُتَابعَة الرَّسُول خُرُوجه عَن دَاره ووطنه إِلَى دَار الغربة والنوى فيضن بوطنه.

السَّبَب الثَّامِن: تخيل ان فِي الاسلام ومتابعة الرَّسُول إزراء وطعنا مِنْهُ على آبَائِهِ وأجداده وذما لَهُم وَهَذَا هُوَ الَّذِي منع ابا طَالب وامثاله عَن الاسلام استعظموا آبَاءَهُم واجدادهم ان يشْهدُوا عَلَيْهِم بالْكفْر والضلال وان يختاروا خلاف مَا اخْتَار اولئك لأنفسهم وَرَأَوا انهم ان اسلموا سفهوا احلام اولئك وضللوا عُقُولهمْ ورموهم بأقبح القبائح وَهُوَ الْكفْر والشرك وَلِهَذَا قَالَ اعداء الله لابي طَالب عِنْد الْمَوْت ترغب عَن مِلَّة عبد الْمطلب فَكَانَ آخر مَا كَلمهمْ بِهِ هُوَ على مِلَّة عبد الْمطلب فَلم يَدعه اعداء الله الا من هَذَا الْبَاب لعلمهم بتعظيمه اباه عبد الْمطلب وانه انما حَاز الْفَخر والشرف بِهِ فَكيف يَأْتِي امرا يلْزم مِنْهُ غَايَة تنقيصه وذمه وَلِهَذَا قَالَ لَوْلَا ان تكون مسَبَّة على بني عبد الْمطلب لَا قررت بهَا عَيْنك.

السَّبَب التَّاسِع: مُتَابعَة من يعاديه من النَّاس للرسول وَسَبقه الى الدُّخُول فِي دينه وتخصصه وقربه مِنْهُ وَهَذَا الْقدر منع كثيرا من اتِّبَاع الْهدى يكون للرجل عَدو وَيبغض مَكَانَهُ وَلَا يحب أرضا يمشي عَلَيْهَا ويقصد مُخَالفَته ومناقضته فيراه قد اتبع الْحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الْحق وأهله وإن كَانَ لَا عَدَاوَة بَينه وَبينهمْ وَهَذَا كَمَا جرى للْيَهُود مَعَ الأنصار فانهم كَانُوا أعدائهم وَكَانُوا يتواعدونهم بِخُرُوج النَّبِي وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم مَعَه فَلَمَّا بدرهم إليه الأنصار وأسلموا حملهمْ معاداتهم على الْبَقَاء على كفرهم ويهوديتهم.

السَّبَب الْعَاشِر: مَانع الالف وَالْعَادَة والمنشأ فَإِن الْعَادة قد تقوى حَتَّى تغلب حكم الطبيعة **وَلِهَذَا قيل هِيَ طبيعة ثَانِيَة** فيربى الرجل على الْمقَالة وينشأ عَلَيْهَا صَغِيرا فيتربى قلبه وَنَفسه عَلَيْهَا كَمَا يتربى لَحْمه وعظمه على الْغذَاء الْمُعْتَاد وَلَا يعقل نَفسه إلا عَلَيْهَا ثمَّ يَأْتِيهِ الْعلم وهلة وَاحِدَة يُرِيد إِزَالَتهَا وإخراجها من قلبه وأن يسكن موضعهَا فيعسر عَلَيْهِ الِانْتِقَال ويصعب عَلَيْهِ الزَّوَال وَهَذَا السَّبَب وَإِن كَانَ أضعف الأسباب معنى فَهُوَ أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل لَيْسَ مَعَ أكثرهم بل جَمِيعهم إِلَّا مَا عَسى أن يشذ إلا عادة ومربي تربى عَلَيْهِ طفْلا لَا يعرف غَيرهَا وَلَا يحسن بِهِ فدين العوايد هُوَ الْغَالِب على أَكثر النَّاس فالانتقال عَنهُ كالانتقال عَن الطبيعة إلى طبيعة ثَانِيَة.

فصلوات الله وَسَلَامه على أنبيائه وَرُسُله خُصُوصا على خاتمهم وأفضلهم مُحَمَّد كَيفَ غيروا عوائد الأمم الْبَاطِلَة ونقلوهم إلى الإيمان حَتَّى استحدثوا بِهِ طبيعة ثَانِيَة خَرجُوا بهَا عَن عَادَتهم وطبيعتهم الْفَاسِدَة وَلَا يعلم مشقة هَذَا على النُّفُوس إلا من زاول نقل رجل وَاحِد عَن دينه ومقالته إلى الْحق فجزى الله الْمُرْسلين افضل مَا جزى بِهِ احدا من الْعَالمين.

إِذا عرف ان الْمُقْتَضى نَوْعَانِ فالهدى الْمُقْتَضى وَحده لَا يُوجب الاهتداء وَالْهدى التَّام يُوجب الاهتداء.

فالأول هدى الْبَيَان الدّلَالَة والتعليم وَلِهَذَا يُقَال هدى فَمَا اهْتَدَى.

وَالثَّانِي هدى الْبَيَان وَالدّلَالَة مَعَ إِعْطَاء التَّوْفِيق وَخلق الارادة فَهَذَا الْهدى الَّذِي يستلزم الاهتداء وَلَا يتَخَلَّف عَنهُ مُوجبه فَمَتَى وجد السَّبَب وانتفت الْمَوَانِع لزم وجود حكمه.

وَهَهُنَا دقيقة فِي مسألتنا أنه بِوُجُود هَذِه الْمَوَانِع الْمَذْكُورَة اَوْ بَعْضهَا هَل يضعف الْعلم حَتَّى لَا يصير مؤثرا الْبَتَّةَ؟

وَالتَّحْقِيق أن الْمَوَانِع تحجبه وتعميه وَرُبمَا قلبت حَقِيقَته من الْقلب وَالْقُرْآن قد دلّ على هَذَا.

قَالَ تَعَالَى {وَإِذ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قوم لم تؤذونني وَقد تعلمُونَ أَنِّي رَسُول الله إِلَيْكُم فَلَمَّا زاغوا أزاغ الله قُلُوبهم وَالله لَا يهدي الْقَوْم الْفَاسِقين} فعاقبهم سُبْحَانَهُ بإزاغة قُلُوبهم عَن الْحق لما زاغوا عَنهُ ابْتِدَاء.

وَنَظِيره قَوْله تَعَالَى {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كَمَا لم يُؤمنُوا بِهِ أول مرّة ونذرهم فِي طغيانهم يعمهون}

وَلِهَذَا قيل **من عرض عَلَيْهِ حق فَرده فَلم يقبله عُوقِبَ بِفساد قلبه وعقله ورأيه.**